واحدة من أجمل قصص الكتابات المقدسة هي تلك التي تروي لنا قصة متحدرين من النبي نوح، بعد الطوفان، حين كانت الأرض كلها لغةً واحدة، وحاول أولئك الناس بناء برج شاهق وعظيم يوصلهم إلى السماء. تقول الحكاية إن الرب غضب منهم وعاقبهم ببلبلة ألسنتهم؛ فلم يعد أحدٌ منهم يفهم كلام رفيقه. وتُبيّن الكتابات المقدسة أن هذه القصة جرت هناك، في بابل، ببلاد ما بين النهرين، الأرض التي خرجت منها أجمل الأساطير وأعظم حقائق الفكر الإنساني.

منذ ذلك اليوم الذي بلبل فيه الرب ألسنة البشر، ولدت سلالة التراجمة ليكونوا وسيلة التواصل والتفاهم، ورسل المحبة والسلام، وتوطيد العلاقات بين الشعوب والثقافات. وبفضل هؤلاء التراجمة عرفت حضارة العرب وثقافتهم عصرها الذهبي، وحققت لها مكانة راسخة في التاريخ حين نقل تراجمتها إلى اللغة العربية فلسفةَ الإغريقِ وفكرهم، وآدابَ وحكمة الهند وفارس. وتُوجت تلك النهضة في عصر هارون الرشيد وابنه المأمون بإنشاء دار الحكمة التي اجتذب أبرز المترجمين من مختلف الأمصار لإنجاز رسالتها المعرفية.

وعلى غرار دار الحكمة البغدادية، رعى الملك الحكيم ألفونسو العاشر مدرسة المترجمين في هذه المدينة حيث نلتقي اليوم، فتحولت طليطلة إلى قبلة الدارسين الوافدين من كافة أنحاء أوروبا لمتابعة التحصيل والاطلاع على كنوز مكتباتها العربية. وأحد أبرز أولئك الدارسين الذين قَدِموا إلى مدينة العلم والمكتبات لينهلوا من علومها، العلامة الكبير خيراردو دي كريمونا الذي أتشرف اليوم بنيل هذه الجائزة التي تحمل اسمه. والذي ترجم في مدرسة طليطلة أكثر من ثمانين كتاباً لكبار العلماء الذين صنعوا حضارة العرب، من أمثال ابن سينا والكندي والفارابي وابن رشد، وجلّها مؤلفات في الفكر والفلسفة والطب والجراحة. ومن هذه المدينة أيضاً انطلقت شعلة النور التي نشرت في أرجاء أوروبا ضياء العلم والمعرفة، وأخرجتها من ظلمة العصور الوسطى من وحروب الطوائف المدمرة.

اليوم، وأنا أتلقى هذا التكريم الذي يحمل اسم مواطن طليطلة العالمي، أجد نفسي أعود إلى ما قبل أكثر من ثلاثين عاماً، يوم صدرت باكورة أعمالي الترجمية ممثلة في رواية الكاتب الكولومبي الكبير غابرييل غارثيا ماركيث «ليس لدى الكولونيل من يكاتبه»، والطريقة التي قوبلت بها تلك الترجمة، سواء من الصحافة أو القراء، مما قلب كل مخططاتي رأساً على عقب. فقد تخليت عن مشاريعي وأحلامي الأخرى، وكرست نفسي جسداً وروحاً للترجمة الأدبية ولا شيء سواها. وبها لقيت كنزي الذي لا يضاهيه كنز: محبة القراء من مختلف بلداننا العربية والاحتفاء الذي يحيطونني به أينما حللت.

فألف ألف تحية لروح العلامة الذي تحمل هذه الجائزة اسمه.

وألف شكر للقائمين على هذه الجائزة، في جامعة كاستيا ـ لامانتشا، ومدرسة المترجمين والهيئات المؤسسة لهذه الجائزة.